حِبر أبيَض
WHITE INK

أ.د. حياة الرشيدي

سور جدة ومينـاؤها

كتبـــت في تاريخ جدة زمن العثمانيين بحثًا ونعته بـ"جدة بين رحالتين"، واخترت الكتابة من كتابات الرحالة ســـنوك وكورتلمون، ووجدت الكثير مما اتفق عليه مؤرخو الحجاز ومكة بحكم أن جدة مرفأً لقدوم الحجاج لها.

جـــدة مرفأ على ســـاحل البحر الأحمر من حواضـــر بلاد الحجاز، ولأهميـــة موقعها نالت اهتمام الحُكام، والعلمـــاء من مؤرخين وجغرافيين، وغيرهم، وذلك لأنهـــا كما وصفها الإصطخري وغيره بأنها فُرضَة مكة وســـاحلها، وُصِفَت بأنها عامرة، كثيرة التجارات والأموال، ليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالًا وتجارة منها.

عُرفت بأنها مدينة محصنة، عامِرة، آهِلة، بها قصور عجيبة، ولها ســـور، وبها أســـواق، وقد وصفها ناصر خســـرو بقوله: "لها بوابتان؛ شرقية تؤدي إلى مكة، وتُعرف بباب مكة، وغربية تؤدي إلى البحر، وتُعرف بباب الفُرضة، وأنها تتبع مكة إداريًّا".

لم يكن لتاريخ جدة في كتابات ســـنوك كتابة خُصِصـــت لها، لكنه أتى على ذِكرها حين كتب عـــن مكة أو بلاد الحجاز بشـــكل عام، ومع ذلك الاقتضاب كان يربط ما وقـــع في جدة من أحداث بما يجري في الحجاز، سواءً كانت المناطق القريبة، أو البعيدة عنها، وما يحدث في الجزيرة العربية بوجه عام، ولم يكتب ســـنوك كثيرًا عن ميناء جدة، لكنه يأتي علـــى ذكره فيما يخص الاهتمام به من عدمه عندما كتب عن استحســـان السلطان العثماني بتتبُّع الشريف للسفن البرتغالية 948هـ/1541م التي وصلت جدة، وبعد أن انتهى القتال أنعم الســـلطان بنصف عائدات الميناء، وكتابة ســـنوك تدل على التتبُّع السياســـي للأحداث بين الحجاز والدولة العثمانية من حيث إنها موردًا مهمًّا من مواردها.

ويتَّضح بالمجمل أن الرحالة – كنيبـــور- كتبوا عن طبيعة ميناء جدة، وأثر المد والجزر مثلًا، وأن ذلـــك يُعِيق الحركة ويؤخرها كثيرًا، وكتب آخر- وهو باديا - عن صعوبة الرســـو في الميناء بســـبب الشُّـــعَب المرجانية، وقد كتب كورتلمون عن أثرها، وتتأكد معلومة مهمة في الكتابات الســـابقة أيضًا وهي سوء أحوال الميناء، ورداءة السفن فيه، وجهل البحارة في التعامل مع بعضهم البعض كربابنة.

ويُحلـــل الرحالة بوركهارت أن تأثُّر الميناء بســـبب بناء المدينة علـــى أرض مرتفعة ارتفاعًا قلـــيلًا، وبالتالي يغمـــر البحر أجزاء منها، وأوضـــح ديدييه كرحالة أن المينـــاء مياهه ضحلة، ومليء بالرملة، وعلى الســـفن أن ترســـو على بُعد من 2-3 أميال عن الشـــاطئ، لتكن الخطورة على السفن الراسية أفضل من أن تقترب.

وكتاباتهـــم تؤكد مدى الإهمال الذي وجده ميناء جدة من الدولة العثمانية التي تعتبر جدة مدينة مهمة لها، فهي مدخل لبلاد الحرمين، ووجهة للعالم الإسلامي، والســـيطرة المباشـــرة عليها تتطلَّب خدمات في كل حال من أحوالها.

كتب كورتلمون عن جدة: "إنها شاطئ محترق ومجدب، مرفأها مُوحِش، ووضعها محزن".

ولكل من ســـنوك وكورتلمون تتبُّع خاص لأوضاع جدة حســـب الحدث الذي يمر بهما أثناء الكتابة، يظهر أن ســـنوك لم يتعرض لكتابة ما يخص أي معلومات خاصة بالسلع التجارية والأسواق، بل كتب عن أحوال سياسية كما ذكر سابقًا، لكن كورتلمون اهتم بالكتابة عن مشاهدته لأرصفة ميناء جدة فيقـــول: "ها هي الأرصفة مليئة بالبضائع القادمة من جميـــع البلدان، وها هي ذي صفوف غير متناهية من الســـنابك توجد مسحوبة على الرمال في وقت الجَزْر، تتكئ بحزن على مجاديفها...".

إلى أن يقول: "يمتلئ الممر الـــذي نجتازه بالطوب، والعوارض الحديدية، والمواد المتنوعة الملقاة على الأرض بطريقة عشوائية، وتكسوها الرمال إلى منتصفها".

ويوضح كورتلمون كذلـــك عن مخلَّفات متراكمة قد مضى عليها حينٌ من الدهر بأن الحاج آكلـــي - وهو مُرافِقه من الجزائر - رآها على وضعها منذ عدة ســـنوات، وأخبـــره بأن تلك المواد كانت مُخصصة لبناء مستشـــفيات ومحاجر صحية، وحمامات التطهيـــر، ويضيف خبرًا مهمًّا جدًّا، هو أن تلك المواد لمشـــروعات وهمية إلى حد ما، وقد لا تُبنَى أبدًا"، وتلك شهادة الحاج آكلي كمعاصر تُبيِّن مدى الإهمال المتعمَّد.

يصف سنوك قدوم الحجاج مِن جاوا أنهم يُســـاقُون كالقطعان إلى الجُزُر المجاورة لحين استكمال ما يلزم صحيًّا، ويُلاحَظ وصفه "كالقطعان"، بحكم أنه كان مسؤولًا عن متابعة حجاج جاوا، ورفع تقارير بذلك لحكومته – هولندا – إعدادًا لاستعمارها.

وما كتبه كورتلمون يوضح الحالة السياســـية التي كتب عنها ســـنوك أيضًا، وهو أن الدولة العثمانية، والوالي التركي في جدة، يهتمون كثيرًا بالســـيطرة السياســـية عليها، وأن يتولى الشريف حمايتهـــا، وله نصف عائـــدات الميناء، وظل هذا الاتفاق ســـاري التنفيذ، فإذا ما قلَّـــت العائدات يتم تعويض الشريف عن طريق عائدات تُنقل من الأراضي السلطانية.

إن معاناة ميناء جدة وســـورها - التي حســـبما كتب الرحالتان وغيرهمـــا، ومن كان يعتاد المجيء إليها لأهداف متعددة - كانت نتاج الأحوال السياســـية واضحة المعالم للقادمين، ومَشاهد ملموســـة، خاصة من قوافل الحجيـــج التي كانت تعاني من ســـوء أحوال الميـــناء وخدماته، وكان لازدواجية الســـلطة، واضطراب الأمن، انعكاس على مَعالِمِها الحضارية القديمة، التي من المفترض أن يكـــون الاهتمام بهـــا وببنيتها التحتية بنيةً متجـــددة، لا أن تُلاقي الإهمـــال، وتعكس الصراعات الداخلية والخارجية عليها.

كتب ســـنوك: "إن أمير جدة التركـــي - يُلاحظ أنه يكتب لفظ: "تركـــي" – والموظفين الأتراك المُرسَـــلين إلى مكة للقيام بمهمات خاصة، بالإضافة إلى أمراء الحج، هم أشخاص غير مرغوب فيهم في الحجاز، ويمثِّلون ظواهر غير مُحبَّبة للنفس العربية، ولقد زادت العلاقة غير الحميمة ســـوءًا أيام الأتراك أكثر من غيرهم من السلاطين الســـابقين؛ فالأتراك والعـــرب يختلف كل واحد منهم عن الآخر اختلافًا واضحًا، ولا يتفهَّم الواحد منهـــم طبائع الآخر، زِد على ذلك أن الأمراء لم يحاولوا إظهار الجانب اللطيف لديهم، الأمر الذي كان يزيد من حدة الموقف في بعض الأحيان بين الجانبين العربي والتركي".